

في تفسير سورة الحجرات: «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»

الشك المطلق في جميع المصادر والأخبار مخالف لأصل الثقة بين الجماعة المؤمنة

وسياتي قوله تعالى: (بل الله بمنّ عليكم أن هداكم للإيمان) فنفضل القول إن شاء الله في هذه المنّة. والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة.. وفي تقرير هذه الحقيقة إيهاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتديره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والانذفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم، قبل أن يختار لهم الله. قاله يختار لهم الخير، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب.

وإن الإنسان ليعجل، وهو لا يدري ما وراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح. (وإدع الإنسان بالشّر دعاء بالخير وكان الإنسان عجولا). ولو استسلم لله، ودخل في السلم كافة، ورضي اختيار الله له، واطمان إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لاستراح وسكن. ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى.. ولكن هذا ذلك من الله وفضل يعطيه من يشاء.

يدي الله ورسوله. ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بوجي الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر. قاله أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار: (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم). وفي هذا إيحاء لهم بأن يتفكروا أمرهم لله ورسوله، وأن يدخلوا في السلم كافة، ويستسلموا لقرار الله وتديره، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه.

نعمة الاختيار

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه، وحرك قلوبهم لحبه، وكشف لهم عن جماله وفضله، وعلّق أرواحهم به، وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا كله من رحمة وفيضه: (ولكن الله يحب الإيكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم). واختيار الله لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فتفهو إليه أرواحهم، وتذكر ما فيه من جمال وخير. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة. حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى!



أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة، فإذا السماء تطلع، وإذا الله - جل جلاله - ينبت رسولهم بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنه لأمر. وإنه لنبا عظيم. وإنها لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بالارض صلة دائمة حية مشهودة، فتقول السماء للارض، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوم خطاهم أولا بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل

بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها ويتبنوها لصيانتها لا لتعطيلها (واعلموا أن فيكم رسول الله). وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت وحدثت. ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالارض صلة دائمة حية مشهودة، فتقول السماء للارض، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوم خطاهم أولا بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل

يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط بتضمن مبدأ التخصيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، والفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي أصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعط لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام

الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة. والله أعلم. ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التخصيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، والفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي أصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعط لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فإن أصبحوا على ما فعلتم نادمين. واعلموا أن فيكم رسول الله، لو بطلبعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله يحب الإيكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة، والله عليم حكيم». كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة. فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث بين المؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها، ويقر ضرورة التثبت من مصدرها: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوما بجهالة، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين».

وبخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقها، وأن تكون أنباؤهم صادقة مأخوذا بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقها، وأن تكون أنباؤهم صادقة مأخوذا بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة

العمل الصالح وأمارات قبوله

أصابه لم يكن ليخطئه، وبالجملة يرضى بالله وبفضائه ويحسن الظن بربه.

تذكر الآخرة

ومن علامات القبول نظر القلب إلى الآخرة، وتذكر موقفه بين يدي الله تعالى وسؤاله إياه عما قدم فيخاف نفسه على الصغيرة والكبيرة، ولقد سال الفضيل بن عياض رجلا يوما وقال له: كم مضى من عمرك؟ قال: ستون سنة، قال: سبحان الله منذ ستين سنة وأنت في طريقك، واعلم أنك مسؤول فاعد للسؤال جوابا، فقال الرجل: وماذا أصنع، قال: أحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وإن أسأت فيما بقي أخذت بما بقي وبما مضى.

إخلاص العمل لله

ومن علامات القبول أن يخلص العمل لأعماله لله فلا يجعل للخلق فيها نصيبا، لأن الخلق في الحقيقة ما هم إلا تراب فوق تراب- قيل لأحد الصالحين- هيا نشهد جنازة فقال: أصبر حتى أرى نيتي، فليظفر الإنسان ثنا نيته وقصده وماذا يريد من العمل، وقد وعظ رجل أمام الحسن البصري فقال له الحسن يا هذا لم أستفد من موعظتك، فقد يكون مرض قلبي وقد يكون لعدم إخلاصك.

قال الحسن: «يا ابن آدم إن لم تكن في زيادة فانت في نقصان».

الثبات على الطاعة

وللثبات على الطاعة ثمة عظيمة كما قال ابن كثير الدمشقي- حيث قال رحمه الله: «لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه يوم القيامة» فمن عاش على الطاعة يابى كرم الله أن يموت على المعصية، وفي الحديث: «بينما رجل يجح مع النبي صلى الله عليه وسلم فوكنته الناقة فمات فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كفوه بخوبية فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا». ويحذر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: «لا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل على رقبته جملا له رغاء فيقول يا محمد يا محمد! فأقول قد بلغت».

وقال عن الرجل الذي سرق من الغنمية إن الشملة التي سرقها لتشتعل عليها ناراً. طهارة القلب ومن علامات القبول أن يتخلص القلب من أمراضه وأدرانته فيعود إلى حب الله تعالى وتقدم مرضاته على مرضاة غيره- وإيثار أوامره على أوامر من سواه، وإن حب المرء لا يحبه إلا لله، وإن يترك الحسد والبغضاء والكراهية، وأن يوقن أن الأمور كلها بيد الله تعالى فيطمئن ويرضى، ويوقن أن ما أخطاه لم يكن ليصيبه وما

إن المسلم يعمل العمل راجيا من الله القبول، وإذا قبل الله عمل الإنسان فهذا دليل أن العمل وقع صحيحا على الوجه الذي يحب الله تبارك وتعالى، قال الفضيل بن عياض: «إن الله لا يقبل من العمل إلا أخلصه وأصوبه، فأخلصه ما كان لله خالصا، وأصوبه ما كان على السنة» وذكر الله تبارك وتعالى أنه لا يقبل العمل إلا من المتقين: «إنما يَتَقَبَّلُ الله من المتقين». فكيف يعرف الإنسان أن عمله قد قبل وأن الجهد الذي قام به أتى ثمرته؟ ذكر علماؤنا أن للقبول أمارات، فإذا تحققت فعلى العبد أن يستبشر، والتي منها:

عدم الرجوع إلى الذنب

إذا كره العبد الذنوب وكره أن يعود إليها فليعلم أنه مقبول، وإذا تذكر الذنب حزّ وندم وانعصر قلبه من الحسرة فقد قبلت توبته، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: «أما إذا تذكر الذنب ففرح وتلذذ فلم يقبل ولو مكث على ذلك أربعين سنة» قال يحيى بن معاذ: «من استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود وعزمه أن يرجع إلى المعصية ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول في وجهه مسدود».

زيادة الطاعة

ومن علامات القبول زيادة الطاعة: قال الحسن البصري: «إن من جزاء الحسنة السنتة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعده، فإذا قبل الله العبد فإنه يوقفه إلى الطاعة، ويصرفه عن المعصية، وقد

السواك مطهرة للفم مرضاة للرب



المبالغة في قصه، لما في ذلك من التجميل والنظافة ومخالفة الكفار. وقد وردت الأحاديث في الحث على قصه وإحفاؤه وإعفاء اللحية وإرسالها وإكرامها، لما في بقاء اللحية من الجمال ومظهر الرجولة، وقد عكس كثير من الناس الأمر، فصاروا يوفرون شواربهم ويحلقون لحاهم أو يقصونها أو يحاصرونها في نطاق ضيق، إمعانا في المخالفة للهدي النبوي، وتقليدا لأعداء الله ورسوله، ونزولا عن سمات الرجولة والشهامة إلى سمات النساء والسفلة، حتى صدق عليهم قول الشاعر:

يقتضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقول الآخر:

ولا عجب أن النساء ترحلت ولكن ثأنيث الرجال عجيب

عليها، واستحبتها لهم. ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها، وليكونوا على أجمل هيئة وأحسن خلقة، وهي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء وافقت عليها الشرائع، وهذه الخصال هي:

- 1 - الاستحدا: وهو حلق العانة، وهي الشعر النابت حول الفرج، سمي استحدا، لاستعمال الحديد فيه، وهي الموسى، وفي إزالته تجميل ونظافة، فيزيله بما شاء من حلق أو غيره.
- 2 - الختان: وهو إزالة الجلدة التي تغطي الحشفة حتى تبرز الحشفة، ويكون زمن الصغر، لأنه أسرع برا، ولينشأ الصغير على أكمل الأحوال. ومن الحكمة في الختان تطهير الذكر من النجاسة المنحقة في القلفة وغير ذلك من الفوائد.
- 3 - قص الشارب وإحفاؤه وهو

الليل أو نوم النهار، لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل، يشوص فاه بالسواك، والشوص: الدلك، وذلك لأن النوم تتغير معه رائحة الفم، لتساعد أجرة المعدة، والسواك في هذه الحالة ينظف الفم من آثارها، ويتأكد السواك أيضا عند تغير رائحة الفم بأكمل أو غيره، ويتأكد أيضا عند قراءة قرآن، لتنظيف الفم وتطيبه لتلاوة كلام الله عز وجل.

وصفة التسوك أن يمر المسواك على لثته وأسنانه، فيبتدئ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، ويمسك المسواك بيده اليسرى.

ومن الزايب التي جاء بها ديننا الحنيف خصال الفطرة التي أمر بها الله في الحديث، وسميت خصال الفطرة، لأن فاعلها يتصف بالفطرة التي فطر الله عليها العباد، وحثهم

الليل أو نوم النهار، لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل، يشوص فاه بالسواك، والشوص: الدلك، وذلك لأن النوم تتغير معه رائحة الفم، لتساعد أجرة المعدة، والسواك في هذه الحالة ينظف الفم من آثارها، ويتأكد السواك أيضا عند تغير رائحة الفم بأكمل أو غيره، ويتأكد أيضا عند قراءة قرآن، لتنظيف الفم وتطيبه لتلاوة كلام الله عز وجل.

وصفة التسوك أن يمر المسواك على لثته وأسنانه، فيبتدئ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، ويمسك المسواك بيده اليسرى.

ومن الزايب التي جاء بها ديننا الحنيف خصال الفطرة التي أمر بها الله في الحديث، وسميت خصال الفطرة، لأن فاعلها يتصف بالفطرة التي فطر الله عليها العباد، وحثهم

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب رواه أحمد وغيره. وثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الاستحدا، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر. وفي «الصحيحين» أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: أحقوا الشوارب وأعقوا اللحي من هذه الأحاديث وما جاء بمعناها أخذ الفقهاء الأحكام التالية:

مشروعية السواك، وهو استعمال عود أو نحوه في الأسنان واللثة، ليذهب ما علق بهما من صفرة ورائحة.

وقد ورد أنه من سنن المرسلين، فأول من استاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مطهرة للفم، أي: منتظف له مما يستكره، وأنه مرضاة للرب، أي: يرضى الرب تبارك وتعالى، وقد ورد في بيانه والحث عليه أكثر من مائة حديث، مما يدل على أنه سنة مؤكدة، حث الشارع عليه، ورغب فيه، وله فوائد عظيمة، من أعظمها وأجمعها ما أشار إليه في هذا الحديث: أنه مطهرة للفم مرضاة للرب. ويكون التسوك يعود لن من أراك أو زيتون أو عرجون أو غيرها مما لا يبتقت ولا يجرح الفم.

ويسن السواك في جميع الأوقات، حتى للصائم في جميع اليوم، على الصحيح، ويتأكد في أوقات مخصوصة، فيتأكد عند الوضوء، لقوله صلى الله عليه وسلم: لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء فالحديث يدل على تأكد استحباب السواك عند الوضوء ويكون ذلك حال المضمضة، لأن ذلك أبلغ في الإبقاء وتنظيف الفم، ويتأكد السواك أيضا عند الصلاة فرضا أو نقلا، لأننا مأمورون عند التقرب إلى الله أن نكون في حال كمال ونظافة، إظهارا لشرف العبادة، ويتأكد السواك أيضا عند الانتباه من نوم